امرأة من الحطية

ـ الساعة توا كم؟

سؤال دائما ترددده، في الصباح أوفي الظهيرة أو في المساء، وهي ليس وراءها ما يشغلها، ولا عمل في غاية الأهمية تريد أن تقوم به، امرأة غريبة الأطوار، لا تقرأ ولا تكتب، ولدت في زمن لا يدخل فيه الآباء بناتهم المدارس، وخاصة هي فقد عاشت يتيمة، فقدت أمها وهي طفلة تحبو، كفلها جدها.

هي امرأة ذات ذهن صافي متوقد، صفحة ناصعة البياض، تجاوزت العقد الخامس من عمرها، فوق الجلباب ترتدي الفراشية البيضاء، في زياراتها المتكررة، عند أقاربها لا تمكث سوى يوم أو يومين، أما عندنا وخاصة زوجتي فقد تربت معها، تمكث عندها بالأسابيع..

حكت لي قصتها ذات يوم قائلة:

- فقدت أمي وأنا طفلة وكذلك أبي، ترعرعت في كنف جدتي، جدي لم يدخلني المدرسة، عشت في الحطية في منتصف الستينات، حيث كنا نعرف بعضنا البعض، والطيبة والمودة تغمرنا، عشت سعيدة مع صاحباتي، ألعب معهن، أدخل بيوتهن وأتغدى عندهن، تزوجت صغيرة من جندي كان يكبرني بعشر سنوات، أنجبت منه العديد من الأطفال ذكورا وبنات، تنقلت معه للجنوب سبها، وللغرب مزدة وترهونة، كنت أعاني الغربة والوحدة، تغمرني السعادة عندما نقوم بزيارة الأقارب في طبرق، أبكي بالدموع عندما يسافر بي الي الغرب، حتى استقربنا الأمر أخيرا في المرج، في كوخ ثم منزل شعبي.

كانت تلك المرأة زياراتها تتكرر لأهلها، لكنها كانت تفضل البقاء عندنا لأطول مدة، عاشت طفولتها وصباها مع زوجتي، كأنها أختها في منزل واحد، تلك المرأة كانت تحفظ كل ما يحث أمامها، في أي بيت تزوره، تسرد الأحداث التي تقع أمامها بالتفصيل، لا تغيب عنها شاردة ولا واردة،

وهي تجهل أن للبيوت أسرارها، تحفظ غناوة العلم والشتاوي، تحب حضور المناسبات والأعراس..

بعد أن طالت غيبتها عن أسرتها، أقبل زوجها الستيني، الطويل القامة، يسأل عنها، حتى وصل إلينا، وبعد العشاء وشرب الشاي حدثني عنها قائلا :

- هي قصتها غريبة انا لم أتشاجر معها، لكن بعد وفاة شقيقها في سيارته في حادث منذ عشر سنوات لم نعد ننام في فراش واحد، كنت أستيقظ في الصباح، وبعد تناول افطاري، أقصد عملي في الضمان، أعود عند الظهيرة لتناول الغداء، أسأل عنها بناتها :

- وين أمكم؟

تبادرني إحداهن :

- عند جيراننا عندهم أسبوع.

بعد صلاة العصر أخرج للعب الشيزة، مع من هم في سني بجوار المسجد،

وأعود بعد صلاة المغرب أسأل عنها كالمعتاد تقول لي إحدى بناتي:

- عند جيرانا عندهم عرس لبنتهم..

وتأتي مع الليل، لا تفوتها مناسبة في الحي، فهي لا تحب البقاء في البيت على الأطلاق..

عندنا في المنزل كانت تصحو قبل السابعة، تدب في الردهة والممرات كالسلحفاة، وعندما تصادفني تحيني بتحية الصباح و تبادرني :

- الساعة كم توا.